الفصل الثاني عشر

الذّكاء العاطفي
والتربية على الدّيمقراطية

تمهيد

وجدت ضرورة في الكتابة عن نوع مختلف من الذّكاء، والقدرات العقلية المختلفة المتداولة مؤخراً بكثرة، وذلك وفق جديّة اتبعتها أغلب المجتمعات. حيث إنّ برامج التّنمية البشرية، والتّدرب على تطوير الذات من خلال إدارة الوقت، وتنشيط القدرات والمهارات المختلفة تُسهم في تحسين التّكيف مع متغيرات العصر الجديدة. لذلك فإنّ اهتمامنا بموضوع الذّكاء العاطفي في عالمنا العربي، أجده من مقتضيات التّغيير التّربوي المهم للسّنوات القادمة...

المقصود بالذّكاء العاطفي

تبعاً لبارون (2000م) عالم النّفس الأمريكي، هو مجموع القدرات المتعددة المرتبطة بالمكونات الانفعالية والشخصية والاجتماعية، بحيث تتكامل محاور الذات، في بناء العلاقات مع الآخرين، والتّكيف مع المتغيرات البيئية المحيطة بنا، لتتّسع إلى مفهوم الصّحة العاطفية المتمثلة في إدارة العواطف.

إن تعريف "بارون" هذا يستند إلى الأبحاث المبكرة لعالم البيولوجيا الشهير "داروين" حول التعبير الانفعالي، لبقاء الكائن الحي وتكيفه مع البيئة، كما تأثر "بارون" بأفكار "ثورندايك"، حول الذّكاء الاجتماعي، وأهميته في أداء الفرد، وكذلك أبحاث "فكسلر" (1940م) حول القدرات اللامعرفية للذّكاء، والمقصود بها العواطف

الشخصية والاجتماعية، التي تعتبر مستوى هذه القدرات اللامعرفيّة، عاملاً أساسياً في التنبؤ بقدرة الفرد على تحمل المسؤوليات، ومن الجدير ذكره، إن تعليم الطّفل للدروس العاطفية، يتم في وقت سابق على تعليم دروس اللغة، بسبب سرعة نمو وتطور الجزء من الدماغ الخاص بالحوار اللاكلامي، والذي يتعلق بحركات الوجه، وطبيعة الأصوات، ونبرتها وبالتّالي فتأثير الآباء في عواطف أطفالهم، له الأثر الكبير والعميق في شخصياتهم، وردود أفعالهم مستقبلاً...

والإنسان بطبيعته يبحث دوماً عن التجارب العاطفية بشتى الطرق والوسائل، لذلك يتعرض وبشكل يومي لاحتمال إصابته بالصدمات العاطفية، حتى من الأمور البسيطة، ولولا المعرفة والذكاء العاطفي سنصبح أكثر جموداً، ولا نعد نشعر بعواطفنا أو لا نستطيع التحكم فيها؛ مما يسبب لنا الألم والانزعاج، والطفولة يمكن أن تكون ممتلئة بالصدمات العاطفية وسوء المعاملة، فلا يعطى الطفل الحنان والرعاية التي يحتاجها إلّا عندما يتصرف كما يريد الكبار. رغم أنّ المعالم الأساسية لشخصية الإنسان تأخذ شكلها مع بلوغه سن السادسة من العمر، ولكن يمكن للتّجارب والجهد الفردي أن يشذب ويغيّر من بعض هذه المعالم الشخصية، وخاصة في المراهقة، أما عند بلوغ الإنسان سن النّضج فتغدو صفاته الشخصية ثابتة تقريباً ويكون سلوكه عموماً متوازناً، وهذه هي أهم مظاهر الصّحة العاطفية، التي تعدّ مطلباً موضوعياً وهدفاً لا بدّ من السّعي لعيشه إذا أردنا أن ننجح ونستمتع في حياتنا اليومية عبر مسيرة الحياة العصريّة اليوم.

يشمل الذّكاء العاطفي الـ EQ جوانب متعددة منها:

1- الثقة في النّفس، والوعي الذاتي بالمشاعر وإدراك شعور الآخرين وتقدير ردود الأفعال وحسبان العواقب.

2- التّحكم في المزاج وإدارته بشكل سليم، وتحقيق التّوازن بين رغبات الشخص، ورغبات الآخرين.

3- الدافعية الذاتية والقدرة على تحديد الأهداف، واتخاذ القرارات، والتّوجه نحو تحقيقها برغم الصّعوبات، أو القصور في الإمكانيات الأخرى.

4- المشاركة الوجدانية مع الآخرين فمثلاً يتفهم، يتعاطف، يتقبل، يتنازل، يكون مرناً مع الآخرين في تقبل أفكارهم، وتشكيل أفكار مشتركه مع الآخر، أي أنّه لا يفرض الرأي بفظاظة أو تسلط.

5- حسن إدارة العلاقة مع الآخرين أي مع الأصدقاء، ومع الزوج أو الزوجة، الأبناء، الوالدين، ومع زملاء العمل، ومع الرؤساء والمرؤوسين...إلخ.

6- جودة التواصل مع الآخرين، التواصل اللفظي وغير لفظي.

إنّ الأهمية المنتظرة للذّكاء العاطفي Emotional Intelligence في الوقت الذي يركز فيه الآباء والتّربويون، وحتى الأطباء على ذكاء القدرات العقلية للأطفال Intelligence Quotient، هناك في المقابل جهل أو تجاهل منا نحن المختصين بدور وأهمية الذكاء العاطفي للأطفال.

لن أتحدّث هنا عن الـ Intelligence Quotient فأنا "متحاملة عليه" بصيغته وطريقته التي قُدمت لنا في العالم العربي... لكني سأوجز الأهمية التي يتوارى خلفها الذّكاء العاطفي.

هناك مقولة في الغرب تقول:

"A lack of emotional intelligence is basically a lack of emotional maturity"

وتعني أن القصور في الذّكاء العاطفي هو أصلاً طريق إلى قصور في النضج مستقبلاً!

وظائف العواطف

للعواطف وظائف مختلفة من خلال ما تقوم به من مثل:

- ترتب المنظومة الفكرية للشّخص، وتوجهه للمعلومات الأكثر أهمية.

– العواطف الفعالة، تؤثر في عمل الذّاكرة، من حيث ما يسمى بالذّاكرة الاصطفائية.

– الحالة العاطفية التي يعيشها الشّخص، تؤثر على تقبله لوجهات النّظر المختلفة، الصّادرة من الأشخاص المحيطين به، والذين يتفاعل معهم حسب المواقف المُعاشة، وكذلك من خلال التّوجهات العاطفية التي يبدونها له.

فالمواقف المريحة تشجع على ابتداع الحلول الجديدة في الحياة اليومية، والعواطف في حياتنا اليومية كشرقيين تعدّ المحرّك الأهم لاستمرار وجود الأشخاص، في حياة بعضهم البعض، كون العلاقات الاجتماعية تشكل محكاً أساسياً في معاشنا وقيمنا العامة، لأجل ذلك من المفيد الوقوف عند العواطف المتداخلة، والمعقدة عند الأشخاص، كما هو الحال في اقتران مشاعر الحب بالكره، واقتران انفعال الخوف بعنصر المفاجأة، لأن المقدرة على ملاحظة تبدل العواطف، من حال إلى حال، والتّمكن من ضبطها حسب ما تقتضيه المواقف، كمؤشر مهم من مؤشرات السّلامة العاطفية والنّضج العاطفي.

وما يعيق تحقّق السلامة العاطفية، الأخطاء العاطفية التي تنشأ في التعاملات اليومية: حيث إنّها تسبب مضاراً كبيراً في حياة الشخص، وتنم حتماً عن ضعف في الذكاء العاطفي، مما يتسبب بخسارة اجتماعية تتعدى الفرد. من ليس لديه ذكاء عاطفي يتربع على عرش هرم سلطوي.

وتبعاً لذلك فإن الذّكاء العاطفي سمة مهمة من سمات الشخصية المناسبة لترشحها لتحمل مسؤوليات متصلة بالشأن العام...

فالذّكاء العاطفي يعدّ مفتاحنا للتّنبؤ بقدرات الطّفل الاجتماعية، الشخصية، المهنية، الحياتية وكل المهارات الأخرى ما عدا المهارات الأكاديمية.

إنّ رؤساء الدول، مدراء و رؤساء المؤسسات الكبرى والبنوك، والقادة والقياديين لا يشترط أن يكون ذكاؤهم الـ IQ عالياً! بل قد يكون غالباً ضمن المعدل الطّبيعي، ولكن بشرط أن يكون الذّكاء العاطفي لديهم عالياً مقارنة بأقرانهم.

ومـن الدّراسـات العالميـة فـي هـذا الشـأن، دراسـة وولـف ودراسـكت (druskat،wolf) عام 2001م، والبرامج التي تبنتها الدّراسة، بهدف تنمية المهارات العاطفية المختلفة، والتي تدل على أهمية امتلاك إنسان العصر الحديث لمهارات الذّكاء العاطفي في تسيير شؤون حياته اليوميّة، لأن امتلاك الأفراد لهذه المهارات، تمكنهم من امتلاك أدوات النّجاح المهني والاجتماعي والأكاديمي، وبالتالي تكون الثّقافة حول حياتنا العاطفية عوناً على التّكيف مع الذات، ومن ثم مع الآخرين من حولنا، وتجعلنا أكثر استمتاعاً وتمتعاً بحظ أوفر بمقومات الصّحة النفسية... ومن الجدير ذكره أنّ عواطف الإنسان تزداد، أو تنضب تبعاً لأمور عدّة منها تجربته الشخصية فمن خلال تنوع خبراته ومحطاته الاجتماعية منها والعملية، تعمل العواطف على تعديل السّلوك، وتوجيه الدوافع الفطرية والمكتسبة، بما يتفق مع قيم المجتمع الذي يعيش به الشخص، كما أنّ العواطف تُكسب الإنسان القدرة على الانتظام والثّبات في سلوكه العام، مما يسهم في التنبؤ بمواقفه تجاه الأمور المهمة التي تواجهه في حياته، سواءً كانت نحو عائلته أو أصدقائه، وحتى مهنته وانتمائه الإنساني العام، وبتآزر كبير حتى يتحقق تكيفه الانفعالي للمستوى المطلوب لأداء ما هو منتظر منه...

الأبعاد التي تتصل بالذّكاء

هذه الأبعاد تعدّ محكات لقياس، وتحديد سوية الذكاء العاطفي ونسبها

1- البعد الذاتي: هو المحك الأهم عند تحديد معيار الذّكاء العاطفي من حيث:

أ. مستوى المعرفة بهذه الذات، وذلك من خلال حصر نقاط القوة والضعف لدى الشّخص.

ب. التنبيه المباشر، لما يدور في النفس الخافية عن الآخرين، والمكشوفة على داخل الشخص.

جـ. إدراك مدى قوة عواطف الشّخص تجاه أمر مادي أو معنوي.

د. هذه المعرفة لذواتنا، كلما كانت واقعية متفائلة وغير متشائمة، كلما كانت بناءة.

2- احترام الذات من خلال:

أ. الشعور بقيمة ذاتنا، بالقدر الذي نحقق فيه النجاح فيما نعمله ونعيشه.

ب. الشعور بالانتماء للجماعة، والابتعاد عن شعور الوحدة.

جـ. امتلاكنا لهدف واضح نعيش لأجله.

د. الشعور بالأمان الجسدي، وكذلك العاطفي، وعدم الشعور بالتّخلي العاطفي، وعدم التّقبل لمن نعيش معهم.

3- التعامل مع العواطف من خلال:

أ. فهم ما وراء المشاعر، التي نعيشها بالسّلب أو الإيجاب.

ب. إعطاء دائرة الأهمية المناسبة لهذه المشاعر، وذلك من خلال قدرتنا على السّيطرة على أنفسنا، إزاء التّقلبات التي نعيشها مع من حولنا.

جـ. مدى القدرة على الاسترخاء، والبعد عن التّوتر والانقباض، من خلال تفاعلنا مع مثيرات الحياة اليومية والضّغوط المعاشة.

د. مدى القدرة على التّخفيف من حالة التوتر، هو مقياس الذّكاء العاطفي بلا شك.

هـ. القدرة على التّأقلم مع تأخر المكافآت المستحقة لنا، له علاقة بذكائنا العاطفي وتفهم الآخرين.

4- كيفية تحفيز الذات:

أ. بث التّفاؤل والأمل الدّائم في النّفس، وذلك من خلال المثابرة على متابعة هدف ما، بدأنا العمل عليه، فقدرتنا على التّركيز والانتباه، مؤشر أيضاً على ذكائنا العاطفي.

ب. التّعاطي المرن مع المستجدات والظروف القائمة.

جـ. القدرة على التّفاعل المرح مع من حولنا، بحيث يجعل السّرور يدخل بصورة دائمة إلينا، ولمن حولنا.

البعد الثاني المتعلق بالآخرين:

1- يكون من خلال التّعاطف الجاد مع الآخرين وذلك عبر ما يلي:

أ. شعور الغيرية الذي يبث للآخر، ويعطيه شعور بالطّمأنينة.

ب. التعبيرات الكلامية وغير الكلامية، أثناء تواصلنا مع الآخرين لبناء علاقة ناجحة، هو مؤشر مهم جداً على الذّكاء العاطفي.

جـ. إدراكنا لحاجات الآخرين وتقديرنا لها.

د. طبيعة الصّلة التي نجدها بالآخر عند تفاعلنا معه، من حيث القرب، البعد، الحيادية وكلها مؤشرات مهمة، للضبط المتوازن للنمو الاجتماعي.

2- مستوى العلاقة مع الآخرين، وتفعيلها من خلال:

أ. المقدرة على الإصغاء لهم.

ب. المقدرة على طرح الأسئلة.

جـ. المقدرة على التواصل المرح والضحك، مع الآخرين من حولنا. المقدرة على التعبير باحترام تجاه من تربطهم بنا صلة ما.

د. المقدرة على التّسامح وتحمل الأذى.

هـ. المقدرة على التّعاون المثمر مع الآخرين.

و. المقدرة على تقبّل النقد خلال العمل في جماعة.

ز. المقدرة على مراجعة الخطأ أمام الفريق.

ح. المقدرة على المطالبة بالحقوق، وعدم المساومة عليها.

ط. المقدرة على قراءة المواقف الاجتماعية، بدقة وعدم الخلط في تفسيرها.

وأختم حديثي هذا بالتأكيد على ما أشار إليه عالم النفس الشّهير "أريكسون Arecson" الذي أكد في أبحاثه على أهمية الانفعالات في العمليات النفسية، وأبدى اهتماماً خاصاً بدور الانفعالات في نظرية حول النّمو الاجتماعي، كما أكدّ على أن

المهارات الاجتماعية المعرفية، تقوم بدور رئيسي في السّيطرة على المهارات التكنولوجية في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد. كما أنّ الانفعالات (emotion) أيضاً، هي التي تشكل الإحساس بالهوية، وفي التّوجه إلى الأدوار الاجتماعية والمهن المقبولة له مستقبلاً. وفي المقابل فإن الأشخاص الذين لا يُعار الاهتمام لنموهم الاجتماعي والانفعالي، يحصل لديهم اضطرابات متعددة في الشخصية الاجتماعية، مثال ذلك: اضطراب الشخصية اللااجتماعية.

هذا الاضطراب يتميز بعدم الاهتمام بالالتزامات الاجتماعية، وافتقاد الشعور مع الآخرين ويلاحظ عليه عنف غير مبرر أو لامبالاة واستهتار، كذلك تظهر لديه هوة كبيرة بين سلوكه والقيم الاجتماعية المتعارف عليها، كما لا يمكن تغيير سلوكه عن طريق العقاب، لأنّ الشّخص الذي يعاني من هذه الاضطرابات، يظهر عليه ضعف في القدرة على تحمل الإحباط وسهولة شديدة في تفريغ العدوان، ونجد الشخص الذي يعاني من اضطراب الشخصية الاجتماعية، أنه دائماً يقدم مبررات مقبولة ظاهرياً لسلوكه، مما يضعه في صراعٍ دائمٍ مع المحيط من حوله.

مثل هذه المشاكل في الشخصية تعدّ الأشد حين يكون التعامل مع المشكلات النفسية، ولكن كلما كان الشّخص صغير السّن كان تحسنه أفضل، إذا ما تم التّدخل معه ضمن محيط متفهم لخصوصية هذا الشّخص.

وكذلك تم العمل معه على الضّوابط الذاتية للشّخصية لإعادة الثقة والأمان المفقود لديه.

الشخصية النرجسية كعائق للعيش الدّيمقراطي

سوف أعالج تحت هذا العنوان الأفكار التّالية:

- مقدمة حول حب الذات وفق المنظور النّفسي التّحليلي (فرويد ولاكان).
- كيفية تكون الأنا.
- تشكل الشخصية النّرجسية.

- صفات الشّخص النّرجسي وفقاً لكليرنبرك.
- النّرجسية عند المرأة.
- سمات الشخصية النّرجسية حسب الـ DSM4.
- معايير السّلامة وفقاً لايريك فروم.
- أفكار مهمة حول النّرجسية كما يجدها ايريك فروم.
- النّرجسية والموقع الاجتماعي.

مقدمة حول حب الذات تبعاً لفرويد وجاك لاكان:

إنّ الإعجاب بالذات يعني الانغلاق وفقد القيمة التي نراها في عيون الآخرين عبر العلاقات الاجتماعية، حيث الحاجة للاعتراف بالشّخص من الآخرين، هي ضرورة من أهم الضّرورات، ولذا نجد التّذبذب في العلاقات يظهر على نحو مميز بين الإفراط في المثالية، وتبخيس الذات. ويكون حب الشّخص في بداية الطّفولة مركزاً على الأم، وعندما يكبر قليلاً، تتوزع دائرة ذلك الحب على الآخرين الأب والأخوة وهكذا... يبدأ الطّفل يتعرف على نفسه، وعلى هويته وعلى ذاته، عن طريق المرآة فيلتفت إلى الأم، لينتزع منها اعترافاً بأن هذه الصّورة المنعكسة من المرآة هي صورته هو، فالطّفل يرى نفسه دائماً بأعين الآخرين، وقد تبالغ الأم أو الأب في المديح، والثناء على الطّفل لجماله، أو تفوقه وإبداعه في مجال معين، ويظل يتأمل في المرآة مفتوناً بصورته فتتضخم ذات الطّفل، ويشعر بحب كبير لذاته، ويعجب ويفتخر بها، ويرى أنه أفضل من الآخرين...

من هنا تبدأ عوارض النّرجسية، والنّرجسية مصطلح يطلق نسبة إلى نارسيس (Narcisse) وهو ذلك الفتى اليوناني الذي ورد ذكره في الأساطير اليونانية، فقد كان نارسيس فتى رائع الجمال، نظر إلى صورته ذات مرة في ماء البحيرة فشاهد جماله، وشغله ذلك عن العالم، فعكف على الصورة يتأملها...

أما النّرجسية وفق "معجم مصطلحات التّحليل النّفسي" فهي الحب الموجه إلى صورة الذات، استناداً إلى أسطورة نرسيس اليونانية المشار إليها سابقاً...

والنّرجسية أو حب الذات، تعني تضخم مفهوم الذات، عند الشّخص والإفراط بالاعتداد بها فيعجب بنفسه، وبقدراته وصفاته و...إلخ. وعلم النّفس بشكل عام، والطب النّفسي بشكل خاص اهتمام جهة بالنّرجسية دون سواها من العلوم، حيث يرجع اهتمام علم النّفس بالنّرجسية إلى عام 1905، على يد العالم الشّهير "فرويد" وفي عام 1914 نشر فرويد مقالة عنوانها (مقدمة في النّرجسية) وفيها وصف النّرجسية بمعانٍ عديدة منها..

– إنّها مرحلة انتقالية لحب الذات والشذوذ والانحراف، ونمط لاختيار الموضوع، ومن إشارات "فرويد" للشّخصية النّرجسية بأنّها حبّ الذات المبالغ فيه، حيث اعتبر "فرويد" أن النّرجسية حالة أولية سابقة على تشكل الأنا، فأوضح أن النّرجسية الأولية تشير: إلى غياب العلاقة مع الموضوع، التي تتميز بحالة اللاتمايز ما بين الأنا والهو، ويمثل النوم استعادة لها، كما تم تبيانه في كتاب علم النّفس الجماعي، والتّحليل النّفسي للأنا، الذي ترجمه العلامة المصري المحلل النّفسي "سامي علي". والذي أكده الكثير من المحللين النّفسانيين بأن النّرجسية الأولية، هي مرحلة مبكرة تتوسط العشقية الذاتية، وحب الموضوع وتتميز بظهور الالتباسية الأولى للأنا، اكتشاف النّرجسية أدى "بفرويد" إلى طرح وجود مرحلة وسطية من التّطور الجنسي ما بين الغلمة الذاتية، وبين محبة الموضوع...

أمّا النّرجسية عند "جاك لاكان" فيعرفها بأنّها: عبارة عن امتلاك صورة الشّخص عن ذاته على غرار الآخر الذي هو الأنا تحديداً، ولقد أقام "جاك لاكان" الصلة ما بين هذه اللحظة الأولى من تكوين الأنا وبين تلك التّجربة النّرجسية الأساسية، التي يطلق عليها اسم مرحلة المرآة . واستناداً إلى هذا المنظور تعرف الأنا من خلال التّماهي بصورة الآخر، بل هي تشكل استدخالاً (interiorisation) لعلاقة معينة، حيث لا تبدو المرحلة النّرجسية كمرحلة تطورية، بل كحالة إحباس اللبيدو، لا يمكن لأي توظيف في الموضوع أن يتجاوزها أو يفرغها تماماً، ليصبح الأنا في النّرجسية بكليته موضوعاً للحب، وبناء على توصيف "فرويد" نجد أن

الشخصية النّرجسية، تتميز بالتّعجرف والنّقص في التّعاطف مع الآخرين، وفرط الحساسية تجاه آراء الآخرين، فهم لا يستطيعون تقبل آراء الآخرين، بأي شكل من الأشكال دون أن يتركوا الآخرين يلاحظون ذلك، ويسفهون بشكل غير مباشر من آراء واقتراحات الآخرين، بل ويدعون أنهم يعرفون ما يفكر به الآخرون، وأنهم ليسوا بحاجة إلى محاضرات الآخرين.

ويبالغ النّرجسيون في إنجازاتهم وميزاتهم ومحاسنهم، ويتوقعون من الآخرين أن يعترفوا لهم بالجميل بصورة خاصة، سواء كان هذا الاعتراف مبرراً أم غير مبرر. ويستحوذ عليهم، وهمُ النجاح والسلطة والتألق، ويعتقدون أن وظيفتهم هي ضبط الأمور تحت سيطرتهم، لأنهم على حق والآخرون على خطأ.

فرويد يتوصل في أبحاثه حول النّرجسية إلى اقامة التّعارض الإجمالي ما بين الحالة النّرجسية الأولى "حالة اللاموضوع" وبين العلاقات مع الموضوع، وتتصف هذه الحالة البدائية التي يطلق عليها اسم النّرجسية الأولية، بالغياب الكلي للعلاقة مع المحيط، وبحالة من اللاتمايز التام ما بين الأنا والهو.

وتجد هذه الحالة نموذجها الأول في الحياة الرّحمية، والتي يمثل النّوم استعادة لها تتفاوت في درجة كما لها.

أما فكرة النّرجسية التي تعاصر تكوين الأنا من خلال التّماهي مع الآخر، لم تهمل كلياً بما يسمى النّرجسية الثانوية المسحوبة من الموضوعات ليكون الأشخاص الذين يعانون من اضطرابات نرجسية، في الشخصية غالباً ما يمتلكون مشاعر مهزوزة بالذات، غير واثقين من أنفسهم داخلياً، ويبالغون نحو الخارج بإظهار ثقتهم الكبيرة، ويعتبرون آراء الآخرين حولهم مهمة جداً لهم، فهم يسعون دائماً لمعرفة: ماذا يفكر الآخرون حولهم...إلخ. وهم يستجيبون لأقل نقد سلبي بالغضب أو بمشاعر من المهانة أو الإذلال، وينتظرون الفرصة المناسبة لرد أبسط النقد بشكل جارح ومضاعف للنقد الموجه لهم، والمشكلة هنا أنه يصعب معرفة، ما هو الرأي الذي يعتبرونه سلبياً؟ وما الرأي الذي يعتبرونه إيجابياً؟ فهم ينظرون

للأمر من منظار نرجسيتهم الخاصة. وغالباً ما يسعون من أجل الحصول على إطراء، ومديح الآخرين بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويميل النّرجسيون نحو إعطاء قيمة عالية لأفعالهم وأفضالهم، والبحث عن المثالية في آبائهم، أو بدائل آبائهم من حيث المركز والعطاء، إذ يعتقد النّرجسي أن الكمال يميز كل تصرفاته، فينتابه الغرور والتكبر على الآخرين ومن ثم احتقارهم..

– كما يتميز النّرجسيون باللامبالاة الباردة، أو المشاعر المميزة للحنق والدونية، وتبرز الضحالة كسمة بارزة في سلوك النرجسي، ويتجلى ذلك في استجابتهم للنقد بانفعال مبالغ به.

لكل ذلك، غالباً ما تعاني علاقات الأشخاص النّرجسيين الإنسانية من سلوكهم هذا بأي موقع وجدوا به، فنجدهم حاسدين للناس الذين يعتبرونهم أكثر نجاحاً منهم، ويضعون في طريقهم العراقيل، إذا ما أحسو أنهم أكثر نجاحاً، ويسفهون آراءهم، ويقللون من قيمتها وأهميتها، أو يشككون بنوايا الآخرين وأهدافهم.

والنّرجسيون يميلون لاستغلال الآخرين، ويستعملونهم وسيلة لتحقيق أهدافهم الخاصة، بالإضافة إلى ذلك فإنهم قلما يكونون متعاطفين مع الآخرين أو حساسين لهم، ويمكنهم أن يمتلئوا بالغيظ والغضب على أي شخص لمجرد أن له رأيه الخاص، أو لا يريد أن يكون تابعاً لهم أو يدور في فلكهم، ويتم استغلال العلاقات بين الأشخاص، كالاستفادة منهم في إشباع رغباته أو تعظيم ذاته، وعدم الاكتراث بالتّكامل الشّخصي لديه، وحقوق الناس الآخرين في مبادلة الاهتمام والتقدير...

ولكن هذا الشعور تجاه الآخرين، يسبب مشكلات كثيرة في الطفولة، تنعكس بآثارها سلباً على الطفل نفسه ومستقبلاً على المجتمع من جراء سلوك بعض أفراده، من هذا التكوين النفسي.

كما يمكننا القول إن الحالة النّرجسية هي بمثابة خبرة يرى الشخص فيها نفسه، بجسمه وحاجاته وتفكيره، بأنها كل شيء أما الآخرين وحاجاتهم، فليست لها أدنى اعتبار عنده، ومعظم الأشخاص لا يكون لديهم وعي وإدراك بنرجسيتهم، رغم

تلك المظاهر التي لا تكشف عنها بجلاء، من كون الميول الذاتية المبالغ فيها، تعوق الأغراض الحقيقية للآخرين، وتفسد العلاقات الشخصية معهم، وحيث وكما هو معلوم للجميع أن الطريق الوحيد الذي نحصل فيه على إرساء جذور الأمن الاجتماعي، وحفظ الكرامة الشخصية، لا يكون إلّا عن طريق الانتماء للآخرين في علاقة حب طبيعية سوية وناضجة...

حيث إن حياتنا النفسية تتشكل بكل تفاصيلها الخاصة والعامة وتشعباتها وحالاتها المفرحة والمحزنة، وملاهيها، وشيطنتها، تتكون عبر العلاقة بالموضوع "موضوع الحب المركزي الأول" العلاقة بالأم وبدائل هذه العلاقة، حيث من خلال استقرائنا لهذا المسار يتحدد سواء النفس ولا سوائها وفقاً للمنهجية النفسية التحليلية... كون التحليل النفسي هو العلم الذي يدرس تحولات الطاقة وتغيراتها المتبادلة في صميم الشخصية ووفقاً "لفرويد" تتضمن الدوافع شكلاً أساسياً من أشكال الطاقة سماه "اللبيدو" حيث يستخدم مصطلح اللبيدو هنا (للإشارة إلى الطاقة النفسية الخاصة بالدوافع الأوليّة الفمويّة والجنسيّة أو دوافع العدوان)، إذ إن مفهوم الطاقة لدى "فرويد" لا يتوجه نحو تفسير ظواهر من قبيل الانهاك الذّهني أو التّقلبات في النّشاط والحيويّة وما شابه ذلك، ولكن لإيضاح التّبدلات الحاصلة في الانتباه والاهتمام والتّعليقات الخاصة بهذا الموضوع أو في السّعي النّاشط نحو ذلك، إذ يجري استثمار مقدار معين من الطاقة "كوانتا" في التّوظيفات والتّمثلات الذّهنية للموضوعات، هذه الكوانتا هي التي تتباين في حركتها واستقرارها...

وكون واقع الحال عند النّرجسي، يتميّز دائماً بغياب الاهتمام بالعالم الخارجي، ويظن نفسه يعلم كل شيء، وأن ما لديه من مخزون علمي، وثقافي هو نهاية العلوم، بذلك تتحول (الأنا) عنده من حالتها الطّبيعية إلى حالتها المرضية المتضخمة كتابوت مؤطر، لا يشعر بها صاحبها أنها كذلك..

كيفية تكون الأنا؟

من خلال ما تقدم نصل إلى أن الشخصية النّرجسية تتشكل بدءاً من

الطّفولة، ولكن آثارها السّلبية الواضحة لا يمكن أن تختفي في البلوغ، لاسيما عند ظهور معالم الجسد عند الجنسين بفعل البلوغ، وعمل الهرمونات الجنسية...

وتبقى الوقاية أهم وسيلة للحد من النّرجسية، بالتربية السّليمة المتوازنة التي تجمع الثواب على الصواب، والعقاب على الخطأ بأسلوب حكيم ومتابعة أسريه واعية، هذه التربية التي تفسح المجال للموهوب لإخراج موهبته، وترعاه بالعقل والتّوجيه، وتجنبه انتقام الذات...

وهنا السّؤال يبدو وجهياً للحديث، عن تشكل الشخصية النّرجسية؟

الدّراسات العديدة حول تشكل الشخصية النّرجسية، تظهر أنها تتكون نتيجة تثبيت السّلوك في سن مبكرة، ولاسيما في سنوات الطّفولة المبكرة على نمو نفسي، لا تبرحه الشخصية مهما تقدم بها الزمن، بمعنى أن هذا النمو لم يتح له العبور، من حيز الأنا الجسدي إلى حيز الأنا الاجتماعي، حيث أن الطّفل يعي ذاته كشيء منفصل عن العالم المحيط به، ويبدأ الإحساس بأهميته، وإن العالم يدور حوله، وهو المحور، لهذا نرى الطّفل الصّغير يردد كل شيء لي، هذا ملكي في عمر معين، ويكثر من لفظ أنا الملكية في غالب كلامه...

والنّرجسي أيضاً وبسبب هشاشة تقدير الذات النّاتج، عن عدم تدعيم للأنا، هو شخص غير متكيف، وبذلك ينشأ عن هذه الشخصية فشل معمم اجتماعي وظيفي، ومعاناة ذاتية بسبب حبّ الذات الذي لا يشبعه إلّا بتجاهل الآخرين من كونه يستفزه كثرة النقد، فهو لا يعنيه إلّا المديح، وكلمات الإعجاب.

ومرحلة النمو النّرجسية عند الأطفال، مطابقة عند فرويد للمرحلة القضيبية، وفق النّظرية السّيكو – جنسية في نمو الشخصية، وهذا التّثبيت يحصل نتيجة تكرار تدريب على السّلوك بشكل مكثف، من قبل القائمين على تربية الطّفل أو الأشخاص المحيطين به، حتى يصبح السّلوك جزءاً من سمات شخصية الرّاشد... حيث إن تثبيت سلوك الطّفل، على هذه المرحلة من خلال عدم إدراك الوالدين لخطورة ما يحصل، يجعل هذا السّلوك يكرر في جميع مراحل حياته، مما يخلق

الشخصية النّرجسية ويعززها. ولما كان حبّ الذات ضرورياً للفرد كي يشكل شخصية منتجة وفقاً (لإريك فروم) وهو ضروري كذلك للثقة بالنفس، ولكن عدم تماهي شخصية الفرد مع الآخرين هو ما يفقد هذه الثقة تماسكها وثباتها، ولذلك نجد الشّخص النّرجسي بذلك يميل لانخفاض تقدير الذات، حيث الأنا العليا لديه ضعيفة، فلا مثال للأنا لديه، فهو غالباً ما يشعر بأنه أعظم حالاً، ويفتقد إلى تمثيلات الآخرين التّعويضية والنّاظمة للعلاقة بالآخر، ونجده غالباً ما يعيش مشاعر خجل وخزي بدلاً من أخلاقيات الشعور بالذنب، التي هي أي مشاعر الذنب بمستوى معين ضرورية للنمو الاجتماعي، والتي تتجسد بالتربية على معرفة الحق والواجب أي فعل ما يجب فعله، وهذا الحال غير نامٍ عند النّرجسي، لأنه يخشى خشية مفرطة النّقد لأنه وفق تقديره افتضاح، والتعرض إلى ما يسمى بالجرح النّرجسي، وليس خشية تقريع الضّمير، وبذلك يمكننا القول إن الافتقار إلى التعاطف عند النرجسي سمة لا يمكن بلوغها.

يقارب عالم النفس الأمريكي "ايرك فروم" شخصية النّرجسية بالشخصية البيروقراطية فيقول: الشخصية البيروقراطية هي شخصيّة تتمسك بالتّعليمات بصورة حرفية، وهي شخصيّة ذات تكيف غير منتج تخضع للسّلطة، حيث يوجد أشخاص من النوع الذي يتم التّحكم فيهم من شخص لديه سلطة عليا، وغالباً ما تكون شخصيته عدائية وساديّة نحو الآخرين، وتتحين الفرص لإغضابهم، وصاحب هذه الشخصية يقول: أنا موجود لأني أملك كذا، أو أساوي ما أملكه وما أنفقه، وغالباً ما تكون هذه الشخصية انتهازية متناقضة أقل إنتاجاً وضيقة الأفق وتمتاز بالبخل.

أما عالم النّفس "كيرنبرك" يحدد صفات الشّخص النّرجسي بما يلي:

1- عندما يكون الشخص مشغولاً بنفسه على نحو مبالغ به، من خلال مشاعر تعظيم للذات، وتضخيمها وامتلاك طموحات تفوق القدرات كثيراً.

2- عندما يكون استعراضياً ومتحوراً حول الذات، وأنانياً وميالاً الى التّأرجح بين مشاعر العظمة، ونوبات من الشعور الغامر بالنّقص والعجز عندما يتعرض

بالون العظمة إلى ثقب صغير، وعلى الرغم من أنه يبدو عاشقاً نفسه إلّا أن ذلك العشق واهن سريع الانكسار والتّشظي.

4- تكون علاقة الشّخص بالآخرين فيها مصاعب جمة في الوثوق بهم، وبذات الوقت بحاجة يائسة لإعجابهم لأنه يعتاش على ذلك الإعجاب، وليس على الاستقلالية الواقعية عنهم.

5- لديه حسد شعوري ولاشعوري، لا يمكن تبريره، وشعور الحسد هذا ناجم عن مصاعب فموية متبقية، من مراحل النّماء المبكر، وخصوصاً عدوانية فموية لم تتم تسويتها... هذا الشعور بالمعنى النّفسي التّحليلي يؤدي إلى جملة من الإشكاليات في النّمو النّفسي، من كونه يقلل مما يمتلكه الآخرون دفاعاً ضد الرغبة المضنية في امتلاكه، فهو يقلل من قيمة ما يظنه عظيماً، وما يرغب بشدة في امتلاك مالاً يمتلكه، وشعور التّقليل في القيمة هو عملية لاشعورية تؤثر على عملية التعلم، والاستقبال للأمور الخارجة عن الشّخص في أحيان كثيرة، حيث التعلم يقتضي التّقدير لشخص المعلمين أو الإعجاب بهم، والنّرجسي عاجز عن هذه التّبادلية في الإحساس بالآخرين، من شدة استغراقه بنفسه. فهو بذلك يميل إلى استغلال الآخرين وسرقة أفكارهم، حيث إنه يجد صعوبة في تقبل الأمور من الآخرين لأن ذلك يشعره بالنّقص، وبذلك علاقات النّرجسي بالآخرين موسومة بالسّطحية والافتقار إلى التّعاطف، والقدرة على الالتزام، لذلك هو يقع في الحب لكنه يحسد الشّخص، الذي وقع في حبه، وبذلك نجد النّرجسيين سرعان ما يدخلون في علاقات اجتماعية كثيرة وسرعان ما يخرجون منها...

نظريات علماء النّفس تشير إلى أن هنالك علاقة قوية بين التّقدير المنخفض للذّات وبين الاكتئاب، فمن يعشْ حياته لا يحترمْ ذاته ولا يحبها، يكون عرضة أكثر من غيره للإصابة بالاكتئاب الذي قد يؤدي عندما يكون شديداً إلى الانتحار...

بحيث يعتبر أنه محور حياة الراشدين من حوله والكل في خدمة ما يريد، وهو يعتبر من يقوم بخدمته من الراشدين في محيطه من حيث العناية به في

الطّعام والحمام، كأنه منة منه للرّاشدين، وهكذا نراه يختار من يقوم على خدمته من الضّعفاء، فيشعرهم أن خدمته شرف عظيم.

النّرجسية عند المرأة:

ترى "هيلين دوتش" المحللة النفسية المعروفة: أن الشخصية النّرجسية، تتشكل لدى المرأة في المرحلة العمرية ما قبل المراهقة، عند بدء تشكل الأنا الخاص بها كأنثى، وضربت لذلك مثالاً: أن العلاقة الحاصلة بين الفتيات الصّغار، ولاسيما العلاقة الثّنائية، تأخذ طابعاً نرجسياً، بمعنى أن الأنا الاجتماعي ينتفع من حبه للآخر من أجل ذاته، وعندما يحصل الاندماج ما بين الطّفلتين في علاقاتهما عبر التّشابه وعدم التّمايز، يغدو الأنا يبسط مجاله الخاص به، ويكتسب بعض الثقة بالنّفس، وازدياد القوى النّرجسية للأنا يقوم بدور مهم في تطور النّضوج، ونمو النّرجسية في مرحلة المراهقة...

– سمات الشخصية النّرجسية تلقى قبولاً لدى الذكور منها لدى الإناث في مجتمعاتنا حيث إن هناك هامشاً كبيراً من سلوك الشخصية النّرجسية تكون مقترنة بالسّادية، والمعلوم في بلادنا أن سمات الشخصية المازوشية هي الغالبة والمحببة في حضور المرأة في بلادنا أن تأخذ المرأة دور المستضعفة لتبرز شهامة الرجال واهتمامهم...

من ذلك نجد أن هناك تأثيراً بارزاً للآثار البيئية الاجتماعية على تشكل السّلوك، وتثبيته في الشخصية عند كلا الجنسين...

إذ وبالعودة لـ "دوتش" التي تجد أن هناك بعضاً من جوانب الاختلاف في بناء الشخصية النّرجسية بين الجنسين الذكور والإناث مَرده إلى تدريب الذكور على أن يكون شخصية سادية الحضور، من خلال اهتمامه بالقضايا العامة والخارجية منذ طفولته المبكرة، وبالمقابل تربية الفتاة وتعليمها على الخضوع وأن تكون تابعة، والاهتمام بالقضايا الداخلية الخاصة بالأسرة، وتعزيز حضور الطفلة في هدوئها وتبعيتها لوالدها أو لأخيها، ومن هنا تبرز معاناة المرأة بعدم نيلها لحقوقها

الاجتماعية في بلادنا وتعنّت شخصيات السياسيين واعتدادهم بأنفسهم بالمقابل في هذه البلاد..

الشخصية النّرجسية المرضية:

وفقاً لـ DSM4، معيار التّشخيص في منظمة الصّحة النفسية العالمية... يحدّد أن النّرجسي لديه عدة سمات وفق ما يلي:

– لديه إحساس متعاظم بأهميته مثلاً: يبالغ في حجم إنجازاته ومواهبه ويتوقع من الآخرين أن يُكبّروا شأنه، ويعترفوا بأنه الأفضل دون إنجازات قابلة للقياس، والمضاهاة بإنجازات غيره.

– تداعبه خيالات النّجاح غير المحدود أو النفوذ أو التألق أو الجمال أو الحب المثال بشكل دائم...

– يفتقر إلى التّمثيل الوجداني، لا يرغب في التّعرف على مشاعر الآخرين وحاجتهم...

– يبدي تصرفات تتسم بالغطرسة والتّعجرف.

لديه اعتقاد بأحقيته بالتّميُّز، وفي أن يعامل معاملة تفضيلية.

فالنّرجسي يشعر أنه أفضل حالاً من الآخرين مما يحرمه الانتماء الاجتماعي السّليم...

ويقترح بعض علماء النّفس أن جذور النّرجسية، تنمو عندما يتراوح سن الأطفال من 18 شهراً حتى 3 أعوام.

حيث يقولون إنه إذا لم يُسمح للطّفل في هذه المجموعة العمريّة، أن ينمي هويته وإذا تمَّ الاعتداء عليه لفظياً وانتقاده من والديه، فسيشعر بأن هناك خطأ ما وعليه سينمي بعض نماذج نرجسية لسلوك التّكبر وإحساساً مختالاً بالتّفوق – لحماية نفسه نفسها من مشاعر القصور...

فما بين السّواء وعدم السّواء في السّلوك يبقى مسعانا في الغوص في ثنايا النّفس.

وقد حدد "ايرك فروم" معايير السّلامة النفسية بأربعة عناصر بارزة هي:

- الحاجة الى الانتماء الاجتماعي هرباً من الوحدة وبحثاً عن شفاء.
- الحاجة الى الإرتقاء والتّعالي أي الحاجة إلى الخلق والإبداع.
- الحاجة إلى الإطار المرجعي.
- الحاجة إلى الانضباط الاجتماعي والتّجذّر.

كما يرى "فروم" أن: لكل إنسان القدرة على الحبّ، ولكن تحقيق ذلك صعب للغاية، فنحن نبدأ بتمركز الطّفولة الكامل حول الذات، ولا نستطيع التّمييز بين ذاتنا والآخرين، بأنه فوق الجميع وفوق كل نقد، لأنه لا يرى أنه يقوم بأخطاء...

فقناعته تتجلى بسؤاله الدّائم لنفسه: من هم الآخرون حتى ينتقدوه؟! ورغم كل الوصف السّابق لصعوبات التعامل والتّعايش مع الشّخص النّرجسي، تبقى المشكلة الكبرى لديه أنه لا يدرك أنه مريض، أو أنه يحتاج إلى علاج وتغيير، على الرغم أنه يلاحظ جفاء الآخرين وابتعادهم عنه، لأنه يرجع السّبب بذلك لسلوكهم هم وليس له هو... وهذه حالة في غاية التّعقيد والخطورة عند التعامل الاجتماعي وحتى العمل العلاجي مع هؤلاء الأشخاص...

- هذه الشخصية قد تتطرف لإقناعه بفكرة التّطرف، ولما قد يحصل عليه من أثر دنيوي من ممارسة تلك الفكرة، وما أسرع ما يتخلى عنها لو وجد مصالحه الشخصية في فكرة أخرى بغض النظر عن صواب تلك الفكرة من خطئها، إنه التّمركز حول مصلحة الذات لا حول الفكرة. من هذه الشخصية عادة يكون قادة التّطرف أكثر من الأتباع، ومن مقال "فرويد" وغيره من كتاب مدرسته "مدرسة التّحليل النّفسي" يمكن القول إن النّرجسية هي:

1. إن أسطورة (نرجس) الذي وقع في حب نفسه من خلال خياله هي السّبب وراء تسمية النّرجسية.

2. إن الشّخص النّرجسي منغمس مع الآخرين، ومندمج معهم ويعاملهم كما لو كانوا امتداداً له.

3. تعبر النّرجسية عن إحدى مراحل النّمو التي يمر بها جميع الأفراد ففي السنة الأولى من العمر، نجد الطّفل الصّغير متمركزاً حول ذاته بحيث يكون هو مركز الوجود للمحيطين به، وبعد عدة سنوات ينتقل ليتمركز حول الآخرين، أي يبدأ الإنسان بحب ذاته ثم حبه للآخرين، إحدى الدّراسات النفسية كشفت عن وجود خاصيتين مهمتين للأشخاص النّرجسيين وهما:

1. ميلهم إلى أن يكون لهم خط ثابت من الشعور بالعظمة، وإعطاء قيمة عالية لأفضالهم الشخصية.

2. الميل إلى البحث عن المثالية، في آبائهم أو بدائل آبائهم من حيث المركز الاجتماعي، أو العطاء إن كان (ماديّاً أم معنويّاً).

وأما الفروق بين الذّكور والإناث، في درجات النّرجسية السّوية أو المرضية فإنها أعلى لدى الإناث، وخاصة في فترة المراهقة ومن أبرز مظاهرها كثرة استخدام المرآة، وكثرة استخدام كلمة أنا، ولكن بعد الزّواج، والانشغال بالأطفال ينخفض مستواها الى الحدّ الطّبيعي!

حيث الرّبط بين النّرجسية والطّفولة، والوعي الجنسي المبكر صفات متلازمة، للنّمو الاجتماعي المبكر، وإحباط هذا النّمو بفعل ظروف التّنشئة.

بعض علماء النفس يشيرون إلى أن: جذور النّرجسية تنمو عندما يتراوح سن الأطفال من 18 شهراً حتى 3 أعوام، ليقولوا إنه إذا لم يسمح للطّفل في هذه المجموعة العمرية أن ينمي هويّته، وإذا تم الاعتداء عليه لفظياً وانتقاده من والديه فسيشعر بأن هناك خطأ ما وعليه سينّمي بعض نماذج نرجسية لسلوك التّكبر، وإحساساً مختالاً بالتّفوق لحماية نفسه نفسها من مشاعر القصور، لذلك تُناقش النّرجسية عادة في علاقتها بالأفراد، ولكنها لها مضامينها الاجتماعية والسياسية، ويمكن أن توجد في الجماعات أيضاً. ولقد اقترح "فرويد" أن الأفراد يمكن أن يركزوا اهتمامهم وطاقتهم (وبصفة خاصة الطاقة الشّهوانية أو الجنسية) في أي من الاتجاهين سواء كان تجاه العالم الخارجي أو تجاه النفس. فعندما كنا صغار كنا

نركز طاقتنا وجهدنا على أنفسنا وكلما نكبر نتعلم أن نعيد توجيههما في جميع الأحوال إلى الخارج.

كما ناقش "إريك فروم Erich Fromm" النّرجسية في كتابه "عظمة وقيود فكر فرويد" Greatness and Limitations of Freud Thought(1980) حيث قدم عدداً من النّقاط المهمة، واقترح أن العديد من الأفكار المهمة حول النّرجسية كونها:

1- لها قيمة خالدة، فنشعر بأهميتها لدرجة تجعلنا نعتني بأنفسنا ونحقق الأشياء وغيرها.

2- آراء "فرويد" عن النّرجسية قد تشوهت بآرائه عن المرأة، وطبيعة الحب.

- وبذلك ووفقاً "لفروم Fromm" الذي يجد أن "فرويد" لم يستطيع رؤية أن النّرجسية مضادة للحبّ، وذلك لأنه كانت لديه أفكاره الخاطئة عن الأسلوب الذي يحب به كل من الرجل والمرأة بعضهم البعض، ولقد نبع هذا جزئياً من النّظام الطبقي، والأسلوب الذي تعلمت به نساء الطّبقات الوسطى كيف يتصرفن.

- يعد معظم النّرجسيين من الأفراد الجذابين - ويقترح "فروم، 1980 Fromm" أن معظم الفنانين والكتاب المبدعين والرّاقصات والسياسيين من ذوي الشّخصيات النّرجسية، إلا أن هذه النّرجسية لا تتداخل في فنهم بل تساعدهم فيه. ووفقاً له فإن هؤلاء النّرجسيين يجسدون صورة لما يجب أن يكون عليه الإنسان العادي، وهو ما ينطبق على الإنسان العادي (والذي لا يقيم القلق الذي يعاني منه المريض بالنّرجسية).

- كما قام "فروم Fromm" أيضاً بالتّفريق بين النّرجسية والأنانية. فالأخير يشير إلى نوع من الأثرة والطمع، وهو ما يختلف عن الرؤية المشوهة للواقع الموجودة في النّرجسيين، والذين لا يكونون أنانيين، ولكنهم مصابون بحب الذات.

وقد يكون الشّخص المحبّ لذاته أنانياً، ولكنه قد يكون واقعياً في الوقت ذاته، ويوجه بعض النّرجسيين طاقاتهم نحو إخفاء حبهم لأنفسهم حيث يرتدون قناع

الخضوع، ويشتركون في سلوكيات غير أنانية مثل القيام بأعمال إنسانية عديدة كوسيلة لإخفاء نرجسيتهم .

– وأخيرا يطرح فروم (1980) مناقشة مهمة لما يدعو له "بالنّرجسية الجماعية" ونوع الشّيء الموجود داخل الناس، والذين يؤكدون كما يفعل معظم الأمريكيين (أو اعتادوا عليها على الأقل) مع إحساس بالتّقوى والأفضلية "نحن رقم واحد بالنّسبة لشعوب العالم".. وهذا الأمر أيضاً لدى مشجعي الفرق الرّياضية.

نلخص وفقاً "لفروم" فإن النّرجسية الجماعية ترتبط بالأنظمة الاقتصادية التي تقوم على الأنانية، وتحاول تحقيق الحد الأقصى من الأرباح على حساب الآخرين.

وهو ما يعني أن النّرجسية الجماعية ترتبط بالانحياز، الذي يجده الفرد في المجتمعات الصناعية الحديثة.

– إن الشّخص العادي يعيش في ظروف اجتماعية، تقيّد من تنمية نرجسية مكثفة، فما الذي يغذي نرجسية الفقراء الذين لهم مظهر اجتماعي أقل والذين يميل أطفالهم إلى أن ينظروا إليهم باحتقار؟ فهو لا شيء ولكن إذا ما كان يمكن أن يتعرف على دولته حينها يكون هو كل شيء.

وقد تعد النّرجسية مفيدة جداً للحكومات، عندما ترغب على سبيل المثال في حشد شعوبها وتجهيزها لخوض الحروب. ويتساءل "فروم" إذا ما كان الرجل والمرأة المعاصرين سيموتان من النّرجسية نتيجة لمشاركتهما بالأنا في المجتمعات الصناعية، شديدة الفنيات تماماً كما مات نرجس Narcissus نتيجة لوقوعه في حب صورته في بركة الماء.

ويهتم المعالجون النّفسيون بالنّرجسية، وعادة ما يرونها في الأعداد المتزايدة من المرضى، ومن الصّعب أن نقول إذا ما كان يوجد الآن نرجسية مقارنة بالعصور السّابقة، أو إذا ما كان المعالجون أكثر براعة في التّعرف عليها.

ومهما كانت الحالة فإن النّرجسية بأشكالها العديدة الخفية، تظل مشكلة لها أهميتها الكبيرة، لكل من الأفراد والثّقافات الأمريكية والتّكنولوجية الحديثة الأخرى.

وسواء ما إذا كانت أنانية أو نرجسية، أو مجموعة من كليهما وهو ما يعتبر أمراً خاطئاً، حيث إن التّركيز المتزايد في الثّقافة الأمريكية، وفي هيئاتها السياسية سواء كان على الفرد وحقوقه والشّركات الخاصة، والطّموحات الشخصية لاستثناء النّطاق العام وإحساسه بالمسؤولية الجماعية، والتزاماته الجماعية.

وكنتيجة لذلك يرى العديد من النّقاد عدم وجود، أي توازن في ذلك...

وبالمقابل نلاحظ ظهور نزعة ساديّة، مجاورة للنّزعة النّرجسية حيث إن هاتين النّزعتين تتعايشان في كيان واحد، وذلك نتيجة للتّعامل المزدوج تجاه الإحباط الذي مني به "المتنبي" شاعر العرب الكبير، فهو مرة يتعالى عليه ومرة يحس بالعبث واللاجدوى.

إن هذا التعامل المزدوج، يجعل الذاتي تتأرجح بين نوازع نرجسيّة، هي المولدّة للنّزعة الحيوية وحبّ الحياة، ونوازع ساديّة لحبّ الموت والفناء.

فهذه النّزعة الأخيرة هي التي أبرزت في شعر (المتنبي) ميولاً مبكرة نحو تدمير الذات، ولقد بلغت هذه النّزعة التّدميرية للذّات مبلغاً صريحاً في قوله:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكما سبقت الإشارة إليه من أن حبُّ الذات يعدّ عند الشّخص النّرجسي مرضاً، فقد يتطور ليصل إلى معالم بنية نفسية سمتها الخيال الجامح عنوان رئيس لجنون العظمة، مع رغبة مفرطة للإعجاب به.

كما أنَّ بعض (النّرجسيّين) يوجّه انتقاده إلى الآخرين ليتجنّبَ انتقادهم إيّاه، أما إذا انتقده أحدهم دون إساءة بالغة أو مقصودة أو بيّنَ خطأً في لغته أو أسلوبه أو فحوى مقاله، فالويل للمنتقد منه، فهو لا ينام ليلَه دون انتقام، وحتى إذا استطاع الانتقام منه مرةً فهو لا يملّ من الانتقام المتواصل، لأنَّ ذلك الانتقادَ (يصَدَّع) نرجسيّتَه، ولن تلتئمَ، حتّى ولو وافته المنيّة...

من هنا نصل إلى أن بؤس الإنسانية في معرفة النفس وتصدّعاتها العديدة وخوائها، لتسطر الحوادث عبر التاريخ أن: الإنسان النّرجسيّ العنيف، وهو القاتل والإرهابي، الذي يستعمل الآخرين، وخصوصاً النّساء والأطفال، لتنفيذ مآربه في الاعتداء والانتقام ولا يشعر بالخطيئة والإثم ولا بتأنيب الضّمير، وتكون أحكامه خاطئة، إذ أنه يبنيها على أسس وقواعد ضعيفة منهارة، ولا يستطيع السّيطرة على نفسه، كما أنه يتوقع دائماً الخيانة، وتكون في رأسه صورة نبذ الآخرين له، لذا يعاقبك على لا شيء ويضطرك أن تعمل له ما يريد بأيّ ثمن، فلا يشعر بأيّ ندم أو أي حقٍّ للآخرين.

– الرّقيب أو المستغل، الذي يوقع الخصومة بين الناس، ويبعد أصدقاءه أو حلفاءه عن نيل أهدافهم. يتصف بالمهارة في الحديث، والدّقة في الكلام أو التّلاعب بالكلمات، والأفعال، وعادة ينال مرامه، فعندما يكون همّه المال يكون قاسياً ولا يقرّ له قرار، كما يتظاهر بالمسكنة والحاجة إلى مساعدة، فيسرع أصدقاؤه لنجدته مادياً ومعنوياً، وبعد أن يستعيد عافيته، يدير لهم ظهره، من حيث يعلمون أو لا يعلمون. إضافة إلى التّفاخر بالعلاقات الجنسية، وكثرة تناول الكحول وربما المخدرات أو التّظاهر بكثرة ممارسة الرّياضة، والقوة البدنية، والذي يطلب من الآخرين تبجيله لصفاته هذه، إنَّ هذا النرجسيَّ المتقلب يختار ضحاياه ويخدعهم، فإما يكتشفونه فيتركونه، وإلاّ سينبذهم ويختار أشخاصاً آخرين.

الشّخص النّرجسي السّادي: هو الذي يُسَر لرؤية الأخَر مُعذباً فاقداً مالَه أو منصبه أو يقسو عليه نفسيّاً أو جسديّاً. وسعادته هي اختطاف ما يملك الآخرون لجرِّهم إلى حزن عميق.

– غاسل الدّماغ، يكون ذا هيئة جذابة محترمة، يستغل الأخرين لجلب الصّيت، والجاه والثروة إليه، عادة ما يكون النرجسيون من رجال السّياسة والدّين، بحيث يستهدفون السُّذَّج والمغفلين من الناس أو ضعاف العقول، وأعداؤه هم المثقفون النّابهون!

من هنا تأتي نرجسية الفرد أو الذات، لترسم لصاحبها عوالمه الخاصة به، والتي كما قلت غالباً ما تركز على الشّكل بعيداً عن الجوهر أو المضمون، كأن يرى النّرجسي ذاته متميزاً عن الآخر في ماله، أو مسكنه، أو سيارته، أو جمال شكله، أو حسن لباسه...إلخ.

النّرجسية والموقع الاجتماعي:

بيد أنّ أعقد أشكال النّرجسية تلك التي يحققها منصب اجتماعي أو سياسي لشخص ما، حيث يجعله هذا المنصب يشعر بالتعالي على المواطنين من جمهرة الناس، ويرى فيهم عواماً ورعايا قد جُبِلوا من طينة غير طينته، بل غالباً ما تطغى النّرجسية والتعالي هنا ليرى المرء نفسه متعالياً حتى على زملائه وأهله، في مثل هذه الحالات من الشخصيات النّرجسية، يرى النرجسي نفسه معزولاً عن محيطه الاجتماعي، وتكون الطّامة الكبرى عند فقدانه منصبه الاجتماعي، أو مكانته السياسية حيث تتحقق عزلته عن محيطه الاجتماعي ليس برغبته هو كمسؤول، فقد مكانته الاجتماعية أو السياسية، وإنما برغبة الآخرين الذين تعالى عليهم فكان رد فعلهم تجاهله لنرجسيته تجاههم .

وبمعرض تحديدنا لخطورة الاشخاص النّرجسيين وضرورة التّدبر في التعامل معهم، والسّعي لعلاجهم النفسي إن كانوا في محيطنا القريب، أقول إن المواقف النّرجسية الأكثر خطورة وتعقيداً، هي تلك التي تمتلك المثقف أو الأديب الذي اكتسب قدرات ومهاراتٍ عاليةٍ، في التعامل مع الكلمة التي خُلقت لتوعية الآخرين وإرشادهم إلى القيم الإنسانية، من حبٍ وعدلٍ وخيرٍ وتعاون...

حيث إن المثقف، يمتلك المقومات التي تؤهله لقيادة المجتمع، وهذا ما برز بوضوح منذ بدء التاريخ القديم و دعوة أفلاطون لأن يكون الفيلسوف علي رأس السلطة السياسية، هي: أول دعوة تذكرها لنا كتب التاريخ... ومن ثم الدّعوة الواقعية "لأرسطو" للعمل التّكاملي بين المثقف والسلطة، من حيث أن المثقف يمتلك رؤيا ثاقبة، ولديه مقدرة هائلة تؤهله للقيام بالتّحليل والتّركيب إزاء أي ظاهرة، أو حدث،

أو موقف، ولعل رؤاه تتسم علي الغالب بقوة البصيرة، ومقاربة الموضوعية، كذلك أن المثقف الذي يمضي جُل ساعات يومه، وهو ينهل من بطون الكتب، ويكون ثقافة واسعة، ومعارف ثرية، غير موجودة البتة عند غير المشتغل بالثقافة، والجاهل بها، مما يمنحه آفاقاً لامتناهية تدفعه للانحياز إلي ثقافته، ومعارفه، وسعة مداركه بل وذاته مقارنة مع هذا الآخر، وهذا ما يجعله يتدرج شيئاً فشيئاً نحو حب الذات، ثم الشعور بالتّمايز عن الآخر، وربما دونيته في مواقع وحالات معينه، وقد يتضخم بالتالي هذا الإحساس لاسيما أمام رفض الآخر له، أو الاستعلاء عليه، بكل ما يملك من قوة، مما يدفعه بالتّالي إلي مهاوي النّرجسية، كردّ فعلٍ على هذا الإهمال والتّهميش والاستعلاء غير المسوّغ أن دراسة متأنية لسيكولوجية الإنسان هذه، تظهر إنها حالة غير سويّة على مستوى الفرد والجماعة، كونها تنتج خللاً داخلياً، وتعرقل النّمو، وتمنع فرص التّقدم، فلا بدّ من معالجة أسبابها، والسّعي لتجاوزها، لأنه عادة ما تكون الشخصية النّرجسية ثقيلة الظل على الآخرين، ويواجه أصحابها الكثير من التّوترات في علاقاتهم الاجتماعية، التي ترتد على نفسيتهم بالآلام والجراحات، ومن ثم على مجتمعهم...